وقت ، ونصف الكون الآخر فى وقت آخر وليس لها قطع غيار ، ولم تقصر يوماً فى أداء مهمتها .

وكثيراً ما درسنا فى المدارس قصة من اخترع المصباح « أديسون » وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا ـ بإعجاب وإيمان ـ دقة الشمس التى تنير الكون ، فالآفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من عمق الفهم لابد أن نسلسل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب . وأن نرهف آذاننا لمن يأتى ليحل لنا هذا اللغز ويقول لنا : لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له فى قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه .

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة لينقذونا ويبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذى خلقت السموات ، وأنا الذى خلقت الأرض ، وأنا الذى سخرت لك كل ما فى الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حقيقية فتعلن الإيمان به سبحانه ، وإما غير حقيقية ، فنسأل : من خلق الكون ـ إذن ـ غير الله ؟ . ولماذا لم يقل لنا صفاته ، ولم يرسل لنا بلاغاً عنه ؟ . ولأن أحداً لم يفعل ذلك إذن فالألوهية تثبت لمن أبلغنا عن ذاته وصفاته وصنعته عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فنحن نصدق هذا البلاغ .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا نقع فى ضلال مبين ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن تنتهى إلى شىء لا شىء بعده نتنهى إلى مسبب الأسباب ومالك الملك ـ جلت قدرته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

أى كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً حقًّا ، فالإله الحق يبين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المبالغة فى الملك ، مثلها مثل « رحموت » . وهى صيغة مبالغة من الرحمة ، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذى يمشى وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك ؛ لأن ما يشهده ويحسه هو أمامه ، والملكوت هو ما يغيب عنه ، إذن ففيه « ملك » ، وفيه « ملكوت » ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، والملكوت هو ما وراء هذا الملك .

والمثال هو ما قاله سيدنا إبرهيم حينما تكلم على الشركاء لله قال سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

ولنلحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول : ﴿ الذى خلقنى ﴾ ولم يقل : « الذى هو خلقنى » ، ثم قال ﴿ فهو يهدين ﴾ لأن أحداً لم يدّع أبداً خلق الإنسان ، وهى قضية مسلمة لله ولا تحتاج إلى تأكيد ، أما هداية الناس فهناك من يدعى أنه يهدى الناس . وما يُدّعى من البشر يؤكد بـ « هو » . وما لا يُدّعى من البشر كالخلق والإماتة والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو .

ويتابع سيدنا إبراهيم : ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ وهنا قفز سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وعرف الغيب ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون والشافى الأعظم وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ لأن الناس قد تفتن بالأسباب وتقول : إن الطبيب هو من

يشفى ، ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى نعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشفى ، بدليل أننا كثيراً ما رأينا من يذهب للطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يصير الطبيب فى مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطبيب وطبه

ويرى المريض مصارع الآسين

إذن ، ﴿ فهو يشفين ﴾ أى أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب .

وبذلك جاء سيدنا إبراهيم بالأشياء التى يمكن أن يفتن الإنسان فى أسبابها وأكدها بـ « هو » .

وحين ننظر إلى إبراهيم عليه السلام فى قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً يعترف به جميع الأنبياء ؛ لأن ربنا قال فيه : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾ .

وكذلك قال سبحانه :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

« من الآية ١٢٤ من سورة البقرة »

أى إنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وبظاهر الملك . سأل الله أن تكون الإمامة فى ذريته ، وقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ .

أى اجعل من ذريتى أئمة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

« من الآية ١٢٤ من سورة البقرة »

لأن مسألة الإمامة ليست وراثة دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . وقلنا : إن سيدنا إبراهيم جاء بهاجر وابنه إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، ويقول القرآن على لسانه :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

« سورة إبراهيم »

أى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعى مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت ، وظل فى ذهن سيدنا إبراهيم ، أن الحق سبحانه ـ لا يعطى الإمامة بن ظلم ثم أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة ، وعطاء الربوبية فى الطعام . ويتمثل ذلك فى دعاء سيدنا إبراهيم :

﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

« من الآية ١٢٦ من سورة البقرة »

فكأن إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق فى دعائه بين عهد النبوة والإمامة ، ومطلوبات الحياة ، فيقول له الحق : ﴿ ومن كفر . . ﴾ .

أى أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر ؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من عطاءات الربوبية ، أما المناهج فهى من عطاءات الألوهية ، والله سبحانه وتعالى رب لجميع الناس ؛ لأنه هو الذى استدعاهم جميعاً : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وما دام هو الذى استدعاهم إلى الوجود فهو لا يمنعهم الرزق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يرتبط ويتعلق بذات الحق سبحانه وتعالى ، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات ، والارتباط والتعلق بالصفات ؛ والذى يعبد الله لأنه رزّاق ، ولأنه مُغْنٍ هو مَن يرتبط بالصفات . أما من يرتبط بالله لأنه إله فقط وإن أفقره فهو من يرتبط بالذات ، وحين صفى سيدنا إبراهيم نفسه من كل

العقائد السابقة أوضح له الحق : أنت مأمون على أسرار كونى ، وأعطاه الحق الكثير كما يعطى لكل من يخلص فى الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه .

ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المُثُل فى القرآن فيقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

« من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة »

أى أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتنفذه فإن الحق يعتبرك أميناً على أسراره ، ويعطيك المزيد من الزيادة .

ومعنى « تتقى » أى أن تلتحم بمنهج الحق ، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت فى الفيوضات الدائمة التى لا تنقضى من الحق ؛ لأن الذى فى معيته لابد أن يخلع الحق عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجلى صلته بربه ويطمئنه عليه . ومثال ذلك ما حدث فى « قصة الهجرة » ، تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر فى الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، وهذه قضية كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما ينقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخالص ، ويقول : (يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

أى أنه يقول له : اطمئن ، لن يرانا أحد ؛ لأننا فى معية الله ، وسبحانه لا تدركه الأبصار . وحين يكون الضعيف فى معية القوى فقانون القوى هو الذى يتغلب ، فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأطفال الذين فى مثل سنّه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذونه ، ثم يرونه فى يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتى إلى ناحيته ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله ، ومَن فى معية الله لا يجترىء عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت ، ويمثلها فى رسول من أولى العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئاً من علمه وفيضه لأنه اتقاه .

(١) رواه البخارى ومسلم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

« سورة الكهف »

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذى جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فاتصل بالحق فأعطاه الحق من لدنه علماً . وحين ننظر فى هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى ـ ينظر فى عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لدنه رحمة ومن عنده علما ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور ؛ لأنه ينظر فى دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر فى دائرة ثانية ، ولذلك سيقول العبد الصالح : ﴿ وما فعلته عن أمرى ﴾ .

أى أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ . أى أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فيقول القرآن على لسان موسى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فها هو ذا الرسول الذى جاء ليبلغ المنهج يطيع عبداً صالحا طبق المنهج من رسول سابق ونفذه كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولى العزم . ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

لماذا ؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الملك ، وهو يتكلم من عالم الملكوت .

وحين ركبا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهرى فى عالم المُلْك . يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إخلال بالقانون ، وكيف يعتدى على السفينة بالإفساد ؟ فيرد العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، وليست لك طاقة على مثل هذه المسائل ، فيتذكر موسى ، ثم تأتى حكاية الغلام ، وحكاية الجدار .

وحين ندقق النظر فى هذه الأمور نجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشاذة فى عالم الملك ؛ فخرق السفينة إفساد ظاهرى لكن إذا علم موسى أن هناك مَلِكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة ويستولى عليها غصبا وهذه السفينة لمساكين يعملون فى البحر ، ويريد العبد الصالح أن يحافظ لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المغتصب ؛ وحين يقارن الملك المغتصب بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة . فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .

إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذى كان يقوم بخرق السفينة ؟ إنه كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما فى نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو الفعل نفسه . وحين نأتى لقتل الغلام ، لابد من التساؤل : وما ذنب الغلام ؟ فيفسر العبد الصالح الأمر :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

والأبوان قد يدللان هذا الابن ، ويطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام ليظلا على الإيمان ، وعجلّ ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة .

وفى مسألة الجدار نجد الخلاف بين رؤية عالم المُلْك ، ورؤية عالم الملكوت . ففى ظاهر الأمر أنهما حين أتيا أهل القرية طلباً للطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق

على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود ، فقد يطلب أحد النقود ليدخرها ، لكن من يقول : « أعطنى رغيفاً لآكل » فهذه آية صدق الضرورة فى طلب الطعام . ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما ، إذن هم لئام لا كرام . ويرى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وآيلاً للسقوط فأقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب غضبه أنه والعبد الصالح استطعما هؤلاء فلم يطعموهما ، فكيف تبنى جداراً لهم ؟ ! وكان يصح أن تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهر ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة :

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لئام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكنز تحته أمام لئام بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطفال ، وقد بناه العبد الصالح بهندسة إيمانية ألهمه الله بها بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار . أى أنه بناء موقوت ، مثلما نضبط المنبه على وقت محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار ويأخذان الكنز .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم المُلْك ، وبين عالم الملكوت ؛ فعالم الملكوت هو الذى يغيب عنا وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر ، إلى أن ينتهى إلى مسبب ليس بعده سبب .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾

« سورة الأنعام »

فهل تيقن أو لم يتيقن ؟ .

و« موقنين » جمع « موقن » والجمع أقله ثلاثة ، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل : يقين بعلم من تثق فيه لأنه لا يكذب ؛ ويقين بعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المُخْبَر به . وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى سورة التكاثر قال :

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ ﴾

« سورة التكاثر »

إذا أخبرتكم فهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

« سورة التكاثر »

لأننا سوف نرى النار فى الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين فى سورة الواقعة :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ ﴾

« سورة الواقعة »

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من الموقنين فى كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء ؛ وعواقبها . فمثلا عندما أُخذ ليطرح فى النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة ؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر المُلك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذى خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفىء الله النار بظاهر الأسباب ولكن جعلها الله ليّناً لأعناق خصومه ، فأوضح الحق : يانار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقى .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ ﴾

« سورة الأنبياء »

إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء المُلك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى فى حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سأله قبل أن

يلقوا به فى النار : ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أمَّا إليك فلا .

ثم يأتى له الابتلاء فى آخر حياته بذبح ولده . ونعلم أن الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيته ، وأحياناً تكون الذات هى المسيطرة ، وفى طور آخر تبقى ذاتية أولاده فوق ذاتيته ، أى أنه يحب أولاده أكثر من نفسه . يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً . فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه.إنه ابتلاء شديد قاس ، وهو ابتلاء لا يأتى بواسطة وحى بل بواسطة رؤيا . وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق . لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه ، ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه قضاء ربه فى أى شىء ؛ فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، أو غير ذلك فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القضاء . فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولا يستطيع أحد أن يلوى يد خالقه . إذن فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء .

ولذلك عرف سيدنا ابراهيم هذه القضية : قضية فهمه لعالم الملكوت . فلما قيل له: « اذبح ابنك » لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه ؛ لأنه إن أخذه من يده وفى اليد الأخرى السكين فلابد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط ، فيحرم من الجزاء ، فيبين له المسألة . ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم :

﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾

« من الآية ١٠٢ من سورة الصافات »

وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده ، فماذا قال إسماعيل :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

« من الآية ١٠٢ من سورة الصافات »

قال إسماعيل ذلك ليأخذ عبودية الطاعة . ويؤكد القرآن رضاء إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

« سورة الصافات »

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها :

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

« سورة الصافات »

ويفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر ؛ لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فإذا ما أصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : مادامت هذه المصيبة لا دخل لحركتى فيها ، وأجراها علىّ خالقى فهى اختبار منه ـ سبحانه ـ ولا يوجد خالق يفسد ما خلق . ولا صانع يفسد ما صنع ، ولابد أن لذلك حكمة عنده لا أفهمها أنا ، لكنى واثق فى حكمته .

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فتنتهى . ومن تحدث له مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأت من فى مثل سنّه فسيظل باب الحزن مفتوحا ، وإن أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا . وليعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب من حُرِم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

و« جن » تفيد الستر والتغطية ، ومنها « الجنون » أى ستر العقل ، و« جن الليل » أى أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . و« الجنّة » كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

وكلمة « كوكب » تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان فى ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أى انتقل من بزوغ وطلوع إلى أفول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، فجاء لهم إبراهيم من جنس ما يعبدون ، وقال : « لا أحب الآفلين » .

ويتابع الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربى ، ووقف العلماء هنا وتساءلوا : كيف يقول إبراهيم هذا ربى ، وهى جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجرى إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً ؛ لأن الذى قال : إن إبراهيم قال : هذا ربى ، هو الذى قال فى إبراهيم :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

« من الآية ١٢٤ سورة البقرة »

إذن فقوله ﴿ هذا ربى ﴾ لا تخدش فى وفائه الإيمانى ، ولابد أن لها وجهاً . ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم

السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استخدم ما يسمى فى الجدل بـ « مجاراة الخصم » ؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

مثال ذلك فى حياتنا ، تجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير جداً ، بينما البنت ـ ما شاء الله ـ طويلة ، وحين جاء الخطيب ليراها وتراه تقول لأمها : هذا خطيبى ؟ ! وهذا القول يعنى أنها تنكر أن يكون هذا القصير عنها هو خطيبها ، وحين قال إبراهيم : ﴿ هذا ربى ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هى الرب .

ونلحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب ، فقال : ﴿ لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ ، وفى هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ، ويكون قوله : ﴿ هذا ربى ﴾ لونا من التهكم ؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم : ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ .

فكأنه قال : سلمنا جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ يعنى أنه غير متعصب ضدهم .

وكذلك حين يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ ﴾

وهكذا يثبت له أن كل كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى أفول ، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدم المنطق الذى يحقق نيته فى

أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به آذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نعقد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قال الحق :

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

وقد جاءت بعد قوله سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لينجي حياته وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : ﴿ هذا ربى ﴾ بما تحتمل من أساليب حتى ينجى أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام ؟ .

إذن فقول إبراهيم ﴿ هذا ربى ﴾ يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى بنفسه عن نفسه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾

« من الآية ٤٧ من سورة فصلت »

وسبحانه يعلم أنه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم من زعم المشركين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادى فى بعض القوم : « يا إله الآلهة » لأنه يعلم أن قوماً قد ألهوا ظواهر طبيعية فى الكون لما يرون من الخير فيها ، فأراد أن ينبههم إلى أن هناك إلهاً حقًا .

ويوضح القرآن عدم جدوى الشرك حين يقول :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة المؤمنون »

ويقول سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

« سورة الإسراء »

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذى كان يعتز بجاهه فى دنياه :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

« سورة الدخان »

فهل هذا القول اعتراف بأن الكافر عزيز كريم أو هو قول تهكمى ؟ . إنه تهكم ؛ لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر فى الجحيم .

وكان المنطق فى اللغة أن يقول : فلما رأى الشمس بازغة قال هذه ربى ؛ لأن الشمس مؤنثة ، ولكنه قال : ﴿ هذا ربى ﴾ كما قال فى القمر وفى غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أو حالة واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هى مؤنث مجازى ، ولذلك يفطن العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : « فلان عليم » ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

« من الآية ٧٦ من سورة يوسف »

وإذا كان العالم متمكناً من علمه بشكل غير مسبوق نقول عنه : « علاّم » . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول :

﴿ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

« من الآية ١١٦ من سورة المائدة »

ولم يقل العلماء فى وصف الله علاّمة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ احترازا من أن تلحق علامة التأنيث صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾

« من الآية ٧٨ سورة الأنعام »

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التى قالها ، وحين يسمعها أى عاقل فلابد أن يعلن اتفاقه فى هذا الأمر ، ولذلك قال : « إنى برىء مما تشركون » . ولأنه كإنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالى لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، والتخلية تعنى أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل فى العمل المصلح .. العمل الإيجابى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾

والسموات والأرض هما المظهر الأول للكون الذى طرأ عليه الإنسان ؛ لأن الكون طرأ عليه الإنسان ـ الخليفة فى الأرض ـ ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إنى خلقتكم فقط ، بل خلقت لكم الكون .

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غافر »

ويقدم سيدنا إبراهيم برهانه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذى خلق السموات والأرض ، رافضاً كل فساد فى الكون ، ويتمثل هذا فى قوله ﴿ حنيفاً ﴾ ، و « الحنف » فى اللغة هو ميل فى القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعنى أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود فى الكون ؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يطم الفساد فى الأرض ، وحين يأتى الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً ؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وحاجّه أى حاججه بإدغام الجيمين فى بعضهما . أى أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت فى نقاش وكل واحد يدلى بحجته ، فهذا اسمه الحِجاج ، أو الجدل المبطل ، أى أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك .

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاراة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن ؟ . كأن الغرض من الحِجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذى ارتآه فى قوله سبحانه :

﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

ويرد عليهم :

﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

أى أن مسألة الإيمان قد حُسمت . فقد آمن إبراهيم بالله ويعلن للقوم : « ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً » وهذا القول يدل على أنهم قد هددوه ؛ لأن كلمة « الخوف » جاءت ونفاها عن نفسه . ويعلنها إبراهيم قوية : « ولا أخاف ما تشركون به » أى لا أخاف من الكواكب التى تأفل سواء أكانت نجماً أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التى تعبدونها فليس لها نفع ولا ضر . والضر والنفع هما من صنع الله فقط .

ولذلك تتجلى الدقة فى الأداء العقدى فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

فإن شاء الحق أن يُنزل على عبدٍ كوكباً يصعقه أو يحرقه فهذا موضع آخر لا دخل لمن يعبد الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضا ؛ لأن النافع والضار هو الله ، فحين يشاء الله الضر ، يأتى الضر ، وحين يشاء النفع يأتى النفع .

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

أى اذكروا جيداً ، وافرقوا بين فعل يقع من فاعلٍ ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير تلك الآلة ، فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فليست الصخرة هى التى صنعت وقوعها ، ولا الكوكب هو الذى أسقط نفسه ، إنما الفاعل هو الله :

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وقوله ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطرى طبيعى ؛ لأن الإنسان الخليفة فى الأرض هو الذى تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا ؛ فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوى ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهجَ لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المناهج تنطمس ؛ لأن المناهج تتدخل فى أهواء الناس وتثنيهم عن شهواتهم وتصدهم عن المفاسد فيعرضون عنها أو يتجاهلونها ، إذن فهى عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلى الذى أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلنها إبراهيم :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . و « كيف » هنا تأتى للتعجيب ؛ لأن المنطق أن نخاف من الله وحده الذى يضر وينفع . وحين تدور مجادلة تستيقظ فى كل طرف ذاتية المجادل ، وهناك من يستنكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثيل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بدون استعلاء لا يعطى الحكم بما يحرك الذاتية فى الخصم المجادل ؛ لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ بل قال : « فأى الفريقين أحق بالأمن » مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

«من الآية ٢٤ من سورة سبأ»

وهذا منتهى الحيدة فى الجدل، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال. وهذا هو الجدل الارتقائى، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه:

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

«سورة سبأ»

هل يفعل الرسول جرائم؟ حاشا لله أن يفعل ذلك فهو المعصوم.

وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم: اسألوا عنى إن كنت أجرمت؛ ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم: «ولا نسأل عما تجرمون» بل قال: «ولا نسأل عما تعملون». فلم يأت بمسألة الإجرام بالنسبة لهم؛ وجاء بها بالنسبة له، لأنه واثق أنهم إن أعادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فيستهون إلى الإيمان بمنهجه. وهذا منتهى اللطف فى الجدل.

ويتجلى اللطف فى الجدل فى قوله الحق:

﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

«من الآية ٨١ سورة الأنعام»

والعِلْمُ هو أن تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أن تدلل عليها، وإن اختل شرط فيها فهذا خروج عن العلم، ومثال ذلك ألفاظ اللغة؛ كل لفظ وضع لمعنى، وساعة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى؛ فحين أقول: الشمس. تتصور أنت الشمس فى ذهنك، وكذلك الأرض والماء والجبل. فأنت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة. ونعلم أن هناك فرقاً بين معنى اللفظ مفرداً، وما يعطيه ويفيده اللفظ إذا جاء فى نسبة.

فإذا جاء اللفظ فى نسبة فلابد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشىء ، ولكننا قبل أن نأتى بالقضايا النسبية لابد أن يكون للفظ معنى فى ذاته ، وهذه اسمها معانى اللغة ، وتضم من خلالها لفظا إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن نعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهى ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أى أمر منسوب إلى أمر .

والعلم ـ كما قلنا ـ هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد فى قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب . وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أو لا ؟ وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشىء متيقنا وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمى بالوهم . وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : « إن كنتم تعلمون » أى تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم ؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين فى « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم

إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، فأوضح لهم ﷺ مُطَمْئِناً : إن ذلك الظلم هو الذى قال الله فيه :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة لقمان)

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها : لا معبود بحق إلاّ الله ، أو لا أمر لأحد فى خلق الله إلا لله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هى دائرة الإيمان العقدية .

ويقول الحق : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فكأن هذه المسألة هى منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصَّل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴿٣﴾ ﴾ (سورة العصر)

والعطف فى قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يقتضى المغايرة ، فالإيمان شىء وعمل الصالحات شىء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينبوعى فى القلب ، ولكن العمل ناشىء عن الالتزام الذى شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله ، لا ندّ له ولا شريك معه ، فإن وجدت صفة فى الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة فى الله فى دائرة «ليس كمثله شىء» . فلا قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شىء من ذلك فى اليقين فهذا ظلم واقع فى الإيمان .

فمثلاً : أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أى فعل لا بد أن يمر على بالك نسبة ذهنية ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المنوط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذى لا يمر ببالك

فلست مسئولا عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر فى الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزى لحفظ الإنسان فيبعد رجله ، وهو لا يستطيع فى هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل أمر ذى بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]
« حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)[2]
« حديث شريف »

و « ذى بال » أى كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لابد أن تضعوا هذا الأمر فى بالكم لأن الفعل الذى لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك ـ بدون أمر ـ أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شىء فى قصبته الهوائية غير الهواء ؛ نجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشىء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذى تمر ببالك نسبته الذهنية ثم يمر بالفعل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمّى الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك فى ذلك شىء ؟ . إنه ليس لك إلاّ تجميع فعل ؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التى وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة فى الأرض لتغذى النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة فى البذرة لتمتص شيئاً ينمّى جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شىء أبداً . ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه :

---

(١) رواه عبدالقادر الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة .
(٢) رواه ابن ماجة والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ﴾

« سورة الواقعة »

ثم قال سبحانه :

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ ﴾

« سورة الواقعة »

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أى شىء ذى بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس فى قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أى شىء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ونحن فى قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضى ليحكم بين الناس حُكماً وهناك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم القانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذى أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هى القدرة التى جعلتك تحكم على الأشياء أن تنفعل لك ؟ لابد أن تقول إذن : باسم الله الذى سخر لى هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاتا ومختلقا ومدعيًا أمراً لا تستطيعه ؛ لأنه ليس فى سلطتك ولا فى قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبّس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندى » بل اذكر وقل : ﴿ ما شاء الله ﴾ ؛ لأنك إن قلت : « أوتيته على علم » فالحق قد قال فى شأن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

« من الآية ٨١ من سورة القصص »

أين ذهب علم قارون الذى جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن اختل شىء فيك من هذه المسألة

فاعلم أنك لَبَست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يطلب منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذى تعمله مبتدئاً بـ ﴿ بسم الله ﴾ إلا ما يعينك على طاعته ، ويعينك على بر ، ويعينك على خير ، ولا تصرفه إلا فى عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء فى كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ؛ إنّك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إذن « أولئك لهم الأمن » أى الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه ؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحماته وتجلياته لا تنقطع عن خلقه أبداً ؛ لأنه قيوم أى إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكن دائما فى صحبة القيوم ؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته . فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : (يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دفّ[1] نعليك بين يدىّ فى الجنة . قال : ما عملت عملا أرجى عندى من أنّى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى)[2] .

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجههُ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًّا من الذنوب)[3] .

---

(١) الدف بالفاء : صوت النعل وحركته على الأرض .
(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى .
(٣) رواه مسلم .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقا ؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ الأمن فى الدنيا ، والأمن بمجموع ما كان فى الدنيا مع الأمن فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : هناك أناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون فى طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم . ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة فى عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له ، وإذا قام بأى عمل يأخذ نتيجته ، لكنه لا يأخذ البركة فى العطاء .

وما هى البركة فى العطاء ؟ البركة فى العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه فى الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم فى الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ أى إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن فى جزيئات أعمالهم والأمن المتجمع من جزيئات أعمالهم يعطى لهم الأمن فى الجنة . ﴿ وهم مهتدون ﴾ والهداية هى الطريق الذى يوصل إلى الغاية . ولا يقال لك إنك موفق فى الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة فى ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد

مهمتك ، فسبحانه هو الذى خلقك ، وفى عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذى يحدد لها الغاية منها ؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ، وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذى يشقى بالتجارب إذن ؟

فى الابتكارات العلمية المعملية المادية التى تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذى يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية التى تتعب العالم يأتى التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدى إذن ؟

إن المهتدى هو من يعرف الغاية التى يسعى إليها ، والوسيلة التى تؤهله إلى هذه الغاية . وإذا حدث له عطب فى ملكات نفسه ، يستعين فى إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التى تتعطل لصانعها . ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون فى خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى
ومن أين للغايات بعد المذاهب ؟

ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

والحجة هى البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا حين نحاجج أن تكون لنا غاية فى الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية فى